علاقة التفاعل..

بين الأدبين المحلي والعالمي

عبدالنبي اصطيف

ما الرؤيــة التي ينبغي للــدارس المقارن لــلأدب أن يتمســك بها، فــي تدبُّره لمســألة التفاعــل بيــن آداب العالــم، وبخاصة تفاعل أدبه القومي مع الآداب الأخرى؟ وما المنظور الذي ينبغــي أن يحكم عملــه المقارني؟ وما الهدف الــذي ينبغي أن يتوخاه من عمله هذا حتــى يكون عمله إســهاماً فعلياً في التعارف ما بين الأمم والشــعوب؟ لأن الإنسان عدو ما يجهــل، والمعرفة أنجع وســيلة لتبديد العداوة بينه وبين من حوله..

أســئلة مهمة، بل خطيرة، على المقارن أن يســتحضرها في ذهنه وهو يقــارب أي عمل أدبي أو فني مقارن.

ولربمــا يســتحضر فــي ذهنه، ونفســه، وروحه، ما كان إدوارد سعيد يردده من مقولة هوغو الســانت فيكتوري: (الإنسان الذي يجد وطنه حلواً لايزال مبتدئــاً غضاً، والذي تكون كل أرض بالنســبة له بمنزلة أرضه قوي لتوه، ولكن الكامل هو من يكون العالم كله بالنسبة له أرضاً أجنبية).

التحــدي الأكبــر الــذي علــى المقارن مواجهتــه إذاً، هــو أن يكــون إنســاناً كاملاً، يترك لنفســه مسافة أمان تجعل من كل أرض يطؤها أرضاً أجنبيــة، يقاربها موضوعياً دون أي تعصب لهــا، أو ضدها، وربما يجدر به أن يقتدي بإدوارد ســعيد، فيكون خارجياً وداخلياً في آن معــاً: خارجياً في معالجة كل ما يتصل بها من مســائل ومشــكلات وقضايــا، أي أن يكون إلى حد ما، إن كان ذلك ممكناً إنسانياً، حياديــاً، بل بعيداً عــن اتخاذ هــواه يوجهه، ويحكم منظوره؛ وداخلياً يسعى إلى فهمها من داخلها ببــذل مجهود جاد في تفهم ما يتدبَّره من قضاياها، ومحاولة رؤيتها بعيونها أيضاً.

والمســألة تبدأ، في الواقع، بمنظور المرء لأدبــه القومــي، وتصــوره لموقعــه، ومن ثم لمنزلتــه بين آداب العالم. ذلــك أن الكثيرين منّا، في نظرتهم إلى أدبهم القومي، تأخذهم العــزة بــه، فيتعصبون لــه، ولكل مــا فيه، بل ينشــئون في أذهانهم هرميــة لآداب العالم، يتربع عليهــا أدبهم، ولا ينازعــه فيها منازع، في حين تترك الســفوح للآداب الأخرى، التي ينبغــي أن تنظر بعين الإجــلال والإكبار لمن يتســنم هذه الذروة، وتتطلع إليه مثالاً تحتذي بــه، ومآلاً ترجوه. وفي هذا ما فيه من تعصّب وعنصرية وتمركز مسرف حول الذات، يُفضي إلــى خلق جــدران عاليــة بيــن الآداب تعزل بعضهــا عن بعضها الآخر، وربمــا تحفر بينها خنادق لا ســبيل إلى ردمها، والتواصل من ثَمّ في ما بينها في أي ظرف.

والحقيقــة أن هذا المنظور يقود لا محالة إلى الحديــث عن منظور المــرء إلى الآداب الأخــرى، فهل ينظر إلى وجــوه اختلافها عن أدبه القومي على أنها مؤشــرات سلبية تُضائل مــن قيمتها في نظره، وترفع قدر أدبه، وتعلي من شــأنه، وتؤكد تفوقه بالمقارنة معها؟ وهو ما نراه ســائداً لدى الكثيريــن من المقارنين الغربييــن الذين يتعصبون لــلآداب الأوروبية الغربية بشكل خاص، ويقيســون آداب العالم

> **الإنسان عدو ما يجهل والمعرفة أنجح وسيلة لتبديد العداوة**

الأخرى عليها، ويرفعون أو يخفضون من شأنها، تبعاً لقربها أو بعدها عن آدابهم، داعين ضمناً كُتّاب العالم الثالث، وكُتّاب الجنوب، إلى احتذاء الأنموذج الغربي والسعي إلى محاكاته، والاقتداء بأعلامه في مختلف محاولاتهم في الكتابة في أي جنس أدبي غربي، خاصة، وأن الغرب كان، في ما يزعمون، الرائد في الإنتاج الأدبي العالمي في جميع الأجناس الأدبية، وهو صاحب القدح المُعلّى فيها.

والمتابع للمشهد المقارَني العالمي، يلاحظ أن هذه النزعة المركزية الغربية باتت تخضع اليوم لمساءلة شديدة، ليس فقط من جانب مقارِني العالم الثالث، ومقارِني دول الجنوب، بل حتى من العديد من المتنوِّرين من المقارِنين الغربيين، إذ لم يقصُر الله الإبداع على الغرب وكتّابه، والمؤرِّخ المنصف لتاريخ الآداب في العالم، يتبين أن لسائر كتّاب العالم نصيباً كبيراً فيه، ومن الضروري أخذه بالحسبان في أي منظور مقارَني لآداب العالم: غربيّها وشرقيّها، شماليّها وجنوبيّها.

وثمة، بعد منظور المرء لأدبه، ولآداب العالم الأخرى، منظوره للعلاقة التي تقوم بين أدبه وبين هذه الآداب، والعلاقات التي تنشأ في ما بين هذه الأخيرة.

فهل تقوم هذه العلاقة بين آداب العالم على فكرة التأثّر والتأثير، التي تعني أن يؤثِّر الأدب المتقدِّم زمنيًا في أيّ من تلك الآداب المتأخِّرة عنه؟ وعندها تصبح العلاقة بين الآداب المختلفة علاقة معطٍ وآخذ، مانحٍ ومتلقٍّ، يد عليا ويد سفلى، ما يفضي بنا إلى دخول دوّامة الهرمية في العلاقات الأدبية الدولية، ويدفع فريق الأدب المؤثِّر إلى التباهي والتفاخر بما يعطي أدبهم للأدب الآخر الأدنى منه، ويدفع فريق الأدب المتأثِّر إلى الشعور بالنقص، والإحساس بنوع من التبعية للآخر، الأمر الذي يُرهق كاهل تقليده الأدبي، ويضائل من درجة الأصالة فيه. وهكذا يبالغ الفريق المؤثر بكريم عطائه للآداب الأخرى، في حين يحاول الفريق المتأثر التقليل من شأن دَيْنِه للفريق المؤثِّر، بحافز من الشعور بالفخر القومي، وينتهي الأمر بنا إلى تاريخ مُغرِضٍ لآداب العالم، وللأدب العالمي.. أمّ أن العلاقة بين هذه الآداب علاقة تفاعل بين الآداب المختلفة، يبدأ بلقاء بين أدبين، أو مواجهة، أو احتكاك، أو تماس يمضي بكليهما إلى إعادة التفكير في حاليهما، ثم إلى إعادة النظر في وجه من وجوه إنتاج أي منهما، وينتهي بهما إلى تغيير ما في أحد هذه الوجوه، يستجيب به لما يستجِدّ من حاجات في مجتمع أي منهما، وينسجم مع إمكانات كل منهما، وهذا التغيير ليس إلا تجسيداً للإلهام الذي استمده من الطرف الآخر؟ فعلى سبيل المثال ما فعله عبدالسلام العجيلي في روايته (أجملهن) (٢٠٠١م)، من استلهام أسطورة (آمور وبسيشة)، إنما كان تجسيداً لتفاعله مع هذه الأسطورة، بداية بمشاهدته للوحة الرسام الفرنسي البارون (فرانسوا جيرار) في متحف اللوفر في باريس، ثم بتأمله تمثال (أدامو تادوليني) تلميذ النحات المشهور كانوفا، في فيلا كارلوتا القائمة على بحيرة كومو في إيطاليا؛ وكذا الشأن فيما فعله (عمر أبوريشة) في استلهامه لأسطورة (بيغماليون) في قصيدته (امرأة وتمثال)، أو في ما فعله نبيل سليمان في روايته (تحولات الإنسان الذهبي) (٢٠٢٢م)، عندما استلهم رواية أبوليوس لوكيوس (تحولات الجحش الذهبي)، التي تعود إلى القرن الثاني الميلادي، أو في ما فعلته أهداف سويف في روايتها (خارطة الحب) (٢٠٠٣م)- الترجمة العربية- عندما استلهمت أسطورة إيزيس وأوزوريس.

ومعنى هذا أن العلاقة بين آداب العالم هي، في واقع الحال، علاقة تماسّ، من نوع ما، بين ثقافتين، أو فنين، أو أدبين، تُفضي إلى عملية استلهام لدى كليهما أو أحدهما، ومن ثم تختفي فكرة الهرمية من العلاقات الأدبية الدولية، ويسود بدلاً عنها مبدأ التعارف، الذي يتوسل بالأدب أداة يبدد بها العداوة والبغضاء بين الأمم والشعوب، ويصبح هذا الفن الجميل أداة لنشر الاحترام المتبادل، والمودة والإعجاب بكل فن رفيع، بصرف النظر عن مُنتِجه وجنسه وعِرقه وقوميته وانتمائه، فالفن واحد، والأدب واحد، لأن منتجهما واحد، هو الإنسان، والإنسان واحد في كل زمان ومكان.

لا يقتصر الإبداع على الغرب وكتّابه والمؤرخ المنصف يرى أن لكل كتاب العالم نصيباً كبيراً فيه

العلاقة بين الآداب المختلفة علاقة معط وآخذ ما يدخلنا إلى دوامة الهرمية في العلاقات الأدبية

الفن والأدب واحد لأن منتجهما هو الإنسان وهو واحد في كل زمان ومكان